التصوف المغربي في ابريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية:
دراسة مقارنة

تقرير عن المداخلة الخاصة بندوة "التصوف المغربي في امتداداته الكونية"

بقلم : د خالد ناصر الدين

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد المبعوث رحمة للعالمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم لا فهم لنا إلا ما فهمتنا إنك أنت الجواد الرحيم، اللهم انفعنا بما علمتنا وزدنا علما .

كان لي شرف المشاركة في الندوة الدولية التي نظمها المركز الأكاديمي الدولي للدارسات الصوفية والجمالية، حول : "التصوف المغربي في امتداداته الكونية" أيام 22_23_24_25 رجب 1436 هـ 14_15_16_17 ماي 2015 م بمدينة فاس، وذلك بمداخلة موضوعها:

التصوف المغربي في ابريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية:

دراسة مقارنة من خلال كتابي الدكتور عزيز الكُبيطي إدريسي:

"التصوف الإسلامي في الغرب: الأثر الصوفي المغربي في ابريطانيا _ الزاوية الحبيبية الدرقاوية نموذجا"

و "التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية: مظاهر حضور التصوف المغربي وتأثيراته"، وفيما يلي تقرير متضمن لأهم النقط التي تضمنتها المداخلة .

تتكون المداخلة من مباحث ثلاثة ومقدمة وخاتمة :

_ المقدمة :

"غرب وغرب"، عفوا ! لا يتعلق الأمر بِتَكْرَارٍ لفظي كما قد يتبادر إلى الذهن منذ أول وهلة، بل يتعلق بجناس تام موجب مماثل على حد تصنيف علماء البلاغة، فهو جناس لأن الكلمتين متفقتان في اللفظ ومختلفتان في المعنى، وهو تام موجب لأنهما متفقتان في أمور أربعة: نوع الحروف وعددها وترتيبها وضبطها، وهو مماثل لأنهما معا اسمان. تدل أولى الكلمتين _في هذا السياق_ على الغرب الإسلامي عامة و على المغرب الأقصى على وجه التحديد، في حين تدل ثانيتهما على الغرب الذي يوظف عادة في مقابل "الشرق"، ذلك المتعدد الذي يضم دولا عديدة وقوميات مختلفة (أمريكا الشمالية والدول الأوربية وأمريكا اللاتينية وروسيا واليابان..) عموما، وعلى الغرب الأنجلوساكسوني خاصة ممثلا في ابريطانيا والولايات المتحدة على وجه التحديد .

إذا كان لهذا الأخير أن يفتخر بريادته علميا، وبحيازته قصب السبق تكنولوجيا، رغم الأسئلة المحرقة والقلقة والمشروعة الكثيرة التي تطرحها مسألة الريادة والسبق هاته، فإنه يحق للمغرب أن يفتخر بسبقه الصوفي، وريادته الروحية/الأخلاقية منذ أقدم العصور، فقد ظهرت الإشراقات الأولى للتصوف بالمغرب مع الفاتحين الأوائل، غير أن الوجود الفعلي للظاهرة الصوفية ارتبط بالعصر المرابطي أساسا كما يذهب إلى ذلك الباحث عبد الوهاب الفيلالي[1]، ويتأكد من

(1) _ عبد الوهاب الفيلالي (الأثر الصوفي في المغرب إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد _ ظواهر وقضايا_) 14، نقلا عن (التصوف الإسلامي في الغرب: الأثر الصوفي المغربي في ابريطانيا) 137 _ 138.

خلال كتب التراجم التي اهتمت بتقصي تراجم من سمتهم بالصلحاء والعبَّاد وأهل التصوف[2] ، أن "ظاهرة التصوف قد شملت كل المناطق القديمة الاستقرار وأبرزها الريف وجهات فاس وبسيط تامسنا ودكالة وجهات أغمات ومراكش وجهات هسكورة وجهات ركراكة جنوبي تانسيفت ودرعة ووادي سوس"[3].

لم يبق التصوف حبيس حدود الجغرافيا المغربية، بل فاحت رياحينه ونسماته، وامتدت إشراقاته وأنواره، وتدفقت مياهه العذبة الرقراقة غامرة كل بقاع المعمور، هكذا فرضت الطرق الصوفية المغربية نفوذها الروحي في أعماق أفريقيا (الدرقاوية، التيجانية، الشاذلية، الناصرية...)، كما سجلت حضورها الرباني المتدفق والمتوهج والمتلألىء في الدول الغربية سواء في أوروبا أو أمريكا.

وإذا كان الحضور الصوفي المغربي في أفريقيا قد لقي ما يكفيه من بحث ونقاش وتتبع ورصد ودراسة، فإن أمر تقصي وبحث الحضور الصوفي المغربي في أوروبا وأمريكا يُعَدُّ من البحوث البكر الأصيلة، وهذا أول مؤشر على جدية وطرافة وتميز البحثين القيمين اللذين أنجزهما الدكتور عزيز الكُبيطي إدريسي، واللذين يشكلان أرضية هذه الورقة وخريطتها.

رهان هذه المداخلة هو عقد مقارنة بين حضور التصوف المغربي في ابريطانيا وحضوره في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال هذين البحثين، وهذا ما يفرض بالضرورة تبني منهج مقارن يسمح بتعقب مشاهد التصوف في هذين القطرين الغربيين الأنجلوساكسونيين، ومعلوم أن المقارنة في اللغة مصدر ميمي مشتق من فعل قَارَنَ، يقول صاحب "اللسان":"قارن الشيءُ الشيءَ مقارنة وقرانا: اقترن به وصاحَبَهُ. واقترن الشيء بغيره وقارنته قرانا: صاحبته..."[4] ، وفي الاصطلاح يعرفها صاحب "المعجم الفلسفي"، بأنها:" عملية ذهنية تقوم على ربط موضوع بآخر برابط واحد، لاستخلاص أوجه الشبه والاختلاف بينهما، وقد يشمل هذا الرابط موضوعين أو أكثر."[5]، ويعرفها صاحب "المنهج المقارن"، بأنها "عملية عقلية تتم بتحديد أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين حادثتين اجتماعيتين أو اقتصاديتين أو طبيعيتين ... بقصد الوصول إلى حكم معين يتعلق بوضع الظاهرة في المجتمع والحكم هنا مرتبط باستخدام عناصر التشابه أو التباين بين الظاهرتين المدروستين أو بين مراحل تطور ظاهرة ما..."[6] "[5]

انطلاقا من كل ذلك يحق لنا أن نتساءل: ما حجم وما أبعاد وما خصوصيات حضور التصوف المغربي في الغرب الأنجلوساكسوني (أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية) من خلال كتابي الدكتور عزيز الكبيطي إدريسي؟ ما هي نقط التقاطع، ونقط الاختلاف بين هذين الفضائين الجغرافيين من حيث حضور التصوف المغربي؟ ما هي الخلاصات العامة التي يمكن الخروج بها من خلال هذه المقارنة ؟

انطلاقا من ذلك أقترح قراءة الكتابين وفق أبعاد قرائية ثلاثة:

_ قراءة توجيهية :

_ قراءة تحليلية :

---

(2) _ المقصود: كتاب محمد بن عبد الكريم التميمي: (المستفاد في ذكر الصلحاء والعباد بفاس وما والاها من البلاد)، وكتاب أبي يعقوب يوسف التادلي: (التشوف إلى رجال التصوف)، وكتاب أبي يعقوب البادسي: (المقصد الشريف في صلحاء الريف). انظر: (معلمة المغرب) 2391/7 .

(3) _ (معلمة المغرب) 2391/7 .

(4) _ (لسان العرب) 336/13 _ مادة "قرن" .

(5) _ (المعجم الفلسفي) 405 .

(6) _ (المنهج المقارن) 5 .

_ قراءة تركيبية :

_ المبحث الأول : قراءة في كتاب : "التصوف الإسلامي في الغرب: الأثر الصوفي المغربي في ابريطانيا/ الزاوية الحبيبية الدرقاوية نموذجا"

أولا _ القراءة التوجيهية : (تحليل النصوص الموازية)

1_ اسم الكاتب (عزيز الكُبيطي إدريسي) :

2_ العنوان :

3_ غلاف الكتاب :

4_ بنية الكتاب :

5_ الخطاب المقدماتي في الكتاب :

ثانيا _ القراءة التحليلية :

إن الهدف من القراءة التحليلية في هكذا سياق هو تعقب واستقراء مشاهد ومظاهر وتجليات حضور الأثر الصوفي في ابريطانيا، ولذلك اقترحتُ الاستعانة بمفاتيح ثلاثة لإضاءة جوانب وزاويا هذا الحضور:

1_ مفتاح البذر.

2_ مفتاح الاستواء على الساق .

3_ مفتاح الثمار.

ثالثا _ القراءة التركيبية :

_ المبحث الثاني: قراءة في كتاب: "التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية مظاهر حضور التصوف المغربي وتأثيراته"

أولا _ القراءة التوجيهية : (تحليل النصوص الموازية)

إن الهدف من هذه القراءة هو الوقوف عند عتبات النص المجسدة في عنوانه وغلافه وبنيته وخطابه المقدماتي وغيرها من العناصر الخارجية .

1_ العنوان :

2_ غلاف الكتاب :

3_ بنية الكتاب :

4_ الخطاب المقدماتي :

ثانيا _ القراءة التحليلية :

مادام رهان هذا البحث هو رصد مشاهد وتجليات حضور التصوف المغربي في الولايات المتحدة الأمريكية، فإننا اكتفيت بقراءة الكتاب قراءة شارحة[1] تعيد إنتاج المكتوب بلغة مغايرة تجتر ولا تبدع، وسنعمد تبعا لذلك إلى توظيف المفاتيح الثلاثة التي وظفنا في المبحث السابق: مفتاح البذر/مفتاح الاستواء على الساق/ مفتاح الثمار.

_ ثالثا : القراءة التركيبية :

_ المبحث الثالث: المقارنة بين الحضور الصوفي المغربي في ابريطانيا، والأثر الصوفي المغربي في الولايات المتحدة الأمريكية :

(1) _ يميز تودوروف بين ثلاثة أنواع من القراءة: الإسقاطية والشارحة والشاعرية . انظر : (مفاهيم نقدية) 41 _ 42 .

سعيتُ لتقصي مجالات التقاطع ونقط الاتفاق بين الكتابين سالكا المنحى القرائي الذي سلكته في قراءة الكتابين كلا على حدة .

1 _ على مستوى القراءة التوجيهية (النصوص الموازية) :

أ _ العنوان :

ب _ الخطاب المقدماتي :

ج _ غلاف الكتاب :

2 _ على مستوى القراءة التحليلية :

عمدتُ إلى تقصي نقط الاتفاق والتقاطع على مستوى القراءة التحليلية عبر المفاتيح الثلاثة التي وُظِّفَتْ لفتح أبواب ونوافذ الكتابين معا، ويقودنا استقراء مختلف القضايا والمباحث الواردة فيهما إلى الوقوف على مساحات التقاطع الآتية:

أ _ مفتاح البذر:

ب _ مفتاح الاستواء على الساق :

ج _ مفتاح الثمار:

3 _ على مستوى القراءة التركيبية :

ثانيا _ نقط الاختلاف :

1 _ على مستوى القراءة التوجيهية (النصوص الموازية) :

أ _ العنوان :

ب _ لوحة الغلاف :

ج _ الخطاب المقدماتي :

د _ بنية الكتاب :

على غرار ما فعلناه في المحور السابق، سنعمد إلى تعقب نقط الاختلاف بين الكتابين بتوظيف المفاتيح الثلاثة نفسها، ويقودنا استقراء مختلف القضايا والمباحث الواردة فيهما إلى الوقوف على نقط الاختلاف الآتية :

أ _ مفتاح البذر :

ب _ مفتاح الاستواء على الساق :

ج _ مفتاح الثمار :

3 _ على مستوى القراءة التركيبية :

_ خلاصات واستنتاجات :

لا يملك المتتبع لمحطات ومراحل ومشاهد ولقطات الرحلتين معا، إلا أن يخرج بجملة من الخلاصات والاستنتاجات:

_ تقدم الرحلتان معا صورة جد متميزة وربما غير مسبوقة عن علاقة الشرق بالغرب عموما، فقد دأبت مختلف الدراسات والأبحاث التي تناولت هذه العلاقة على إثارة ما وسم تلك العلاقة عبر التاريخ من صراع وعدوان، وما صحب ذلك وما استتبعه من نهب وسلب واستغلال وقهر واستعباد وغزو وهيمنة وتبعية ومواجهة، مما جعل كل تناول لتلك العلاقة يتسم بغير قليل من الحذر والتوتر لأسباب أجملها بعض الباحثين[1] في:

1_ الحروب الصليبية / 2_ الحركة الاستعمارية / 3_ القيم المادية / 4_ القضية الفلسطينية .

---

(1) _ (الإسلام،الغرب وحوار المستقبل) 12 _ 16 .

ويشكل مصطلح "العولمة" تكثيفا حديثا لكل هذه الأبعاد، وتجميعا معاصرا لكافة هذه الخصوصيات ولمجمل هذه السمات، غير أن عمل الباحث في هاتين الرحلتين معا يثير الانتباه إلى صورة جد متميزة من "العولمة" كما أشار إلى ذلك الدكتور مارك سيدغويك، ذلك أنها "ليست مسارا واحدا لأن هناك أيضا تأثيرا ثقافيا إسلاميا وعربيا في الغرب يظهر من خلال الحركات والتنظيمات الصوفية."[2] ، ولأن المحلية لا تقل أهمية ولا تأثيرا عن العولمة فقد تأكد لهذا الباحث أن التصوف كان "أحد النماذج المبكرة الأولى للعولمة والمحلية معا."[3] ، وهذا ما يتضح جليا من خلال الأفق الذي رسمه الباحث لبحثه قائلا: "وحسبه أنه فتح أفقا جديدا للتحاور مع الغرب وتدارس أفكاره على مائدة التصوف الإسلامي."[4]

_ حضور التصوف المغربي في كل من ابريطانيا وأمريكا يؤكد الأثر الروحي القوي الذي أحدثه رجال الصلاح والولاية المغاربة في البلاد الغربية عموما، ولا يمكن تفسير ذلك إلا بالخصوصيات الربانية التي ميزت السلوك الصوفي المغربي، فقد أجمع الباحثون في التصوف المغربي على أن أهم خصائصه تتمثل في[5] :

أ _ خاصية التوفيق والتكامل التي تهدف بالأساس إلى الجمع بين العقيدة والفقه والتصوف والتأكيد على تكاملهم.

ب_ خاصية التخليق وعدم التجريد ذلك أن المغاربة اختاروا في ممارستهم الصوفية المنحى السني الأخلاقي، ورمزوا له بالإمام الجُنيد الذي عُرفت مدرسته بمدرسة السلوك والأخلاق في مقابل مدرسة الشطح والإغراق التي ركزت على البوح بما تُثمره المجاهدة من فتوحات وعلوم وهبية .

ج _ خاصية العمل والفاعلية، فقد مارس الصوفية المغاربة التدريس والتجارة والزراعة، واتخذوا الحرَف وأمروا بالاجتهاد في العمل، وانخرطوا وانصهروا في كل مجالات الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية...

_ خلاصة القول فقد نجح الباحث عزيز الكبيطي إدريسي في تأكيد حقيقة حضور التصوف المغربي في الغرب الأنجلوساكسوني، هذا الحضور الذي تجاوز حدود التعاطف والانجذاب، وحدود الانطباع السطحي السَّاذَج، وحدود الانخراط في الممارسات الشعائرية الظاهرة، ونفذ مسربلا ومضمخا بجاذبيته الربانية الصادقة، وبعشقه المُحَمَّدِيّ الأزلي العبق، وبقوته الروحية الآسرة الساحرة إلى أعماق القلوب، وسرى في الوجدان مسرى الدم في العروق، لتظهر آثاره الجلالية والجمالية واضحة جلية في كافة مناحي الحياة .

---

(2) _ (التصوف الإسلامي في الغرب: الأثر الصوفي في ابريطانيا)6 .

(3) _ (التصوف الإسلامي في الغرب: الأثر الصوفي في ابريطانيا)7 .

(4) _ (التصوف الإسلامي في الغرب: الأثر الصوفي في ابريطانيا)27 .

(5) _ مجلة (قوت القلوب) /العدد الأول/رجب 1433/يونيو 2012/ مقال بعنوان: (خصائص التصوف المغربي) إسماعيل راضي/ص : 9 .